قلبي...

حسن كامل الصيرفي

أُقصي عنهُ نداهُ وانتقيهِ فهو زهرهْ
غسلتْها في سكونِ السَّحرِ المفتونِ قطرهْ
نقشَ الفجرُ عليها سحرهُ والصبحُ بِشرهْ
وعلاها في الضحى النو رُ فنالتْ منهُ سِرّهْ
وبدتْ عند الأصيــل الأرجوانيّ كجمرهْ
عطفَ الليلُ إليها فقضى يفتحُ صدرهْ
ورأى الشاعرُ فيها مصدراً يلهمُ شعرهْ
فاقطفيها ! إنها قلــبي.. فما أروحَ عطرهْ !

⊙

أرهفي السمعَ إليهِ إنهُ البلبلُ يشدو
ساهرَ الليلِ، ولكنْ هو لا يضنيهِ سهدُ
أتدرينَ الذي ينـــشدُ؟ لا تدرينَ بعدُ !
ملأَ الجوَّ أناشيـــدَ فهذا الجوُّ عبدُ
ينقلُ الأنغـــامَ كالـــوحيِ أميناً فهي عهدُ
لم يصنْـهُ؛ ولكنْ سامعُ الأنغامِ صلدُ
كلهم للنومِ عبدا نٌ، وللأوهامِ جندُ
فاسمعيهِ أنتِ فالبلبـــلُ قلبي باتَ يشدو !

⊙

إنّـهُ فهو كأسٌ لمستها يدُ ربي
جمّعتْ فيهِ الأماني خُضَراً من كلِّ صوبِ
وهو من صنعِ يدِ الأحـــلامِ في ليلةِ حبِ

وهو أنقى من رؤى الشا عرِ في ساعةِ قربِ
انتشت منهُ العذارى وهو أسطورة غيبِ
كان حلواً ، ولكن جفَّ من إدمان شربي
فاملئيهِ خمرةً معصو رةً من كرمِ حبي
واشربيها فهي روحي واحفظيهِ فهو قلبي !

⊙

أترينَ الجدولَ الجا ريَ في عطفِ الحلمِ
سكبتْ فيهِ الليالي من أشعَّاتِ النجومِ
أدمعاً مازجْنَ اندا ءً من الفجرِ الوسيمِ
كوثرُ الفردوسِ أوحا هُ الى دنيا الهمومِ
تجرى يبعثُ فيها من تهاويلِ النعيمِ
راحةَ الله التي حطَّتْ على الكونِ الاليمِ
إنهي منهُ فما تشربهُ خمرُ الكرومِ
انهُ قلبي على شطَّيهِ اطيافُ رسومي ... !

⊙

واذا مرَّتْ بكِ الأيّامُ تطوي الصفحاتِ
وتلاشتْ من فمِ الدنيا معاني البسماتِ
وتلاشتْ إثرها عندكِ أحلى الذكرياتِ
بقيَ العطرُ الذي استروحتِهِ من زهراتي
والصدى العذبُ الذي استطربتِهِ من أغنياتي
وجلالُ النشوةِ الحلوةِ من كأسِ حياتي
وخريرُ الجدولِ الحالمِ في هذا السباتِ
فأعادتْ لكِ أحلامَ الليالي الخالداتِ

عاطفة الحب

وكيف نشأت

لأديب عباسي

مما أثر من ارسطوفانيس ، شاعر الكوميديا اليونانية قوله هازلاً متظرفاً : « كان زمان وكان فيه الجنسان ، شيئاً واحداً . ولكن الله رأى ، جزاء وفاقاً للانسان على شروره العديدة ان يشطره الى شطرين كما تشطر البيضة بشعرة ، وعليه تكلٌ منا ليس الا جزءاً من انسان ، ومن هنا نرانا لا نفك قط عن طلاب جزئنا الآخر المكمّل لنا وهذه الرغبة وذياك السعي في سبيل ما يكمّلنا هما ما أسماها الناس بالحب »

هذا التعريف ، كما جاء على لسان الشاعر الهازل الظريف هو خير تعريف لهذه العاطفة . واذا نحن رجعنا الى علم النشوء نستنطقه ونستوحيه ، وجدناه يكاد يساير هذا التعريف الشعري القديم مسايرة تدعو الى اشد الدهشة والاعجاب

وهذا ايجاز شديد لما يقوله علم النشوء في هذا الشأن : يقول علم النشوء : كانت الارض ، ومرّت عليها الحقب الطوال دون أن يكون فيها ذو نسمة من نبات او حيوان ثم أمر الله ان يكون أوّل الاحياء ، فكان . وهذا الحيّ الاول لم يكن يعدو الخلية الواحدة البسيطة غاية البساطة ، الصغيرة غاية الصغر ، وتكاثرت هذه الخلية البسيطة الصغيرة ما شاء الله لها أن تكاثر . الا انها تكاثرت لا بطريق الشق والهيام ، انما تكاثرت بطريق النموّ والانقسام : تكاثرت وتعدّدت بالانقسام من خلية واحدة نمت بالغذاء وكبرت الى حد لم تستطع عنده تماسكاً ، فانقسمت الى خليتين ، في كل منها خصائص الخلية الاولى وصفاتها . ومضت الحياة تخلق خلقها وتنتج نتاجها على هذا النحو المتشابه المتماثل احقاباً طوالاً لا يعلمها الا الله ، الى ان ملّت الانسجام في التوليد وبرمت بالمتشابه من الخلق . والحياة ، كما نعلم ذلك جيداً ، قنانة بطبعها ترى التنويع وخروج الفرع على الاصل ، شهي أمانيها وأبعد مراميها . ومن هنا هذا الذي نراه من استحالة التشابه التام في الحياة استحالة مطلقة

وجاء طورٌ ثانٍ . وخطت الحياة خطوة اخرى جريئة لا ريب تعدُّ فتحاً في عالم الخلق والتكوين، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كانت تدبُّ فيه الحياة كمن أسدل على عينيه ستار وقامت في وجهه غشاوة . رأت الحياة ان تضمَّ بين عدد من هذه الخلايا الأحادية ، في غلاف هلامي تتعاون على الحياة والنماء والخلق في اسلوب غير الاسلوب الذي اعتادته وحذقته . وسجل هذا الاكتشاف او الفتح ، او ما شئت فسمه ، في سجل الحياة ومضت الاحياء تحيا هذه الحياة امداً رأت في خلاله ان من الخير لها ان تجري على شيء من التخصص ، فشرعت الخلايا الخارجية في هذه المجموعة تتخصص في استجلاب القوت والغذاء للمجموعة كلها . اما الخلايا الداخلية فقد مضت على سنتها في الخلق والتوليد بطريق الانقسام المعهود

***

والنجاح كما نعلم ذلك جيداً ، يولد النجاح . ومن هنا لم تكتف الحياة بما احرزت من نصر ونالت من فوز في مجال النشوء . فقامت تجرب أن تخطو خطوة أخرى : لا سيما وقد لاحظت أن اسلوب الانقسام الذي ما زالت تجري عليه اسفر ، بعد الحقب الطوال ، عن ضعف اكيد في الانتاج وخمود في الذرية حتى خشيت معهما أن يفنى النسل ويزول الى غير رجعة . وشاء القدرة الملهمة ان توجه الحياة عند هذا الطور الخطر من النشوء توجيهاً يعد حقاً من لحظات الدهر الخالدة . وذلك انه بدل ان تمضي هذه الخلايا تنمو وتتكاثر على اسلوب الانقسام الذي وصفنا احدثت بينها حركة عكسية — اي بدل المضي في التوليد على اسلوب الانقسام وزيادة الضعف ضعفاً أوحت بالوحدة والتضام بين هذه الخلايا المنهوكة . وتقدمت اولى خليتين في تاريخ النشوء وتمثت كل واحدة من ذاتها في أخرى ثم انفصلتا وكم كانت دهشة الحياة بالغة لما رأت هذه الخلايا الضعيفة الخائرة تزخر من جديد بالنشاط والحركة وفيض القوة

وكأن الحياة اكتفت بهذا القدر من النجاح تصيبه في هذا النشاط يعود الى هذه الخلايا بعد ان استولى عليها الاعياء ودبَّ فيها الكلال . فمضت حقبة طويلة لا تبدي رغبة ولا تكشف عن عزم في التغيير والتبديل . ولكن الحياة ليس من طبعها الوقوف . فاما سير الى الامام ونماء واما تلكؤ ورجوع ثم فناء ، وكأنما — الحياة — شعرت بأن ما نالته من تقدم يكاد يأتي عليه هذا الخمول والرغبة عن الخلق والابداع فجمعت قواها وحشدت جميع وسائلها ولم يمض حتى اسفر هذا الحشد والجمع عن خلق جديد له سمات واضحة من التخصص والتمايز الجنسي

وقد حققت الحياة هذه الخطوة ، اوَّل ما حققتها ، في الحيوان البروتوزووي المسمى « Eudarina » . فقد اخذت خلايا هذا الحيوان تقسم كل واحدة منها اقساماً صغيرة مختلفة بعضها كبير هادىء وبعضها الآخر صغير ولكنه جمُّ النشاط والحركة . وأبى هذا الحيوان ان يتوالد

الا اذا اتّحد واحدٌ من هذه الاقسام الصغيرة النشيطة بواحدٍ من الاقسام الاخرى الكبيرة الهادئة . وهنا اكتشفت الحياة الجنس ، وهنا فقط كانت بداءة الحب ونواته التي نمت وأفرخت وأخرجت أعجب الأزهار والأثمار . وهنا اصبح مجال الاختيار واسعاً ومدى السعي كبيراً . وذلك أن هذه الحيوانات قامت تتغالب على فرصة الحياة والتناسل . فالضعيف منها فشل ومات وانقرض جنسه . والنشيط نجح وعاش وتكاثر، وتعدَّدت وسائل التفاضل على فرصة الحياة وتخليد الجنس ، فكانت حيناً قوة العضل وشدَّة الأسر وحيناً رخامة الصوت ورقة النغم وحيناً جمال الريش وبهجة الألوان ، وآناً لطف الحيلة وحسن التدبير وآونة شيئاً من هذا وذاك وأخرى منهُ جميعاً

وجاء الانسان في آخر الأزمان وجاءت معهُ غرائزه الأولى وعلى رأسها غريزة الجنس التي ما فتئت تدفعهُ الى طلب البقاء والخلود عن طريق اخلاف البنين والبنات . وكان الانسان في اول امره لا يختلف في هذا الدافع عن بقية الحيوان ، فكان اندفاع الجنسين بعضهما الى بعض لا يعدو هذه الحاجة الحسية التي تفضي في نهاية امرها الى ايجادها الذرية الجديدة ، وهذه الذرية الجديدة ، تعيد تمثيل الدور الذي مثله آباؤها وتذهب في سبيل الذاهبين الأولين . واذاً لا ريب أن وراء هذا التجاذب بين الجنسين في الانسان والحيوان شهوة اخلاف النسل وتخليد النوع

ولكن لسائل ان يسأل هنا : وماذا كانت فائدة هذا الاختصاص والتمايز اللذين افضى اليهما التطوُّر واقصاء عوامل التذكير عن عوامل التأنيث اذ كان غرض الحياة ، وهو بقاء النوع وتخليد الجنس محققاً بالانقسام الذاتي الموصوف ؟ والجواب هو ما رأينا من ان الانقسام الذاتي أسفر عن فشل في عملية التطوُّر والنشوء حتى كاد يتقرض النوع ويبيد وان اقصاء عوامل التذكير عن عوامل التأنيث ثم اتصالها بعدئذٍ أفضى الى إعادة النشاط والقوة الى جميع الاحياء. وهذا لا ريب ، يفسر لنا ما يفضي اليه الزواج بين الأقارب من ضعف ينتهي مع الزمن الى انقراض الجنس كله ، ويفسر لنا أيضاً زيادة النشاط والحيوية بين الاجناس المختلفة إذ يمتزج بعضها ببعض عن طريق التزاوج ، وهو يفسر لنا أيضاً معنى هذه الحرمات الجنسية التي فرضها الدين حيناً وفرضتها الشعوب على أنفسها أحياناً أخرى ، من تحريم التزاوج بين الأقارب او تقييدهُ بقيودٍ تقلل من أذاه وتلطف من شره . ولعلَّ هذه الشعوب الباسيفيكية في بعض جزر المحيط التي رضيت ان تتحلل من جميع القيود بشأن الزواج وغدت من جراء ذلك بسبيل الزوال هي خير دعاية لهذه القيود الجنسية واكبر برهان على فضلها وصلاحها في معركة النزاع على البقاء

ولنعد الى سلطة الشهوة ، فنرى ، ولكن بعد الألوف المؤلفة من الأحيان ، ان الغريزة وما يصحبها من انجذاب الجنسين بعضهما الى بعض ، أصبحا حبًّا وقيماً يملأ القلوب ويغلب الشهوة ، فأصبحت الشهوة عاطفة والميل حبًّا واللذة شعراً والنزوة الطارئة هوىً خالداً . ولكن كيف حدث هذا وماذا ساعد عليه ؟ الجواب عن هذا يطول ، وانما يكفي ان نقرر ان الانسان لما بدأ يتحضر ويتمدن ورقَّ طبعه وتدمثت أخلاقه وانتظمت غرائزه ، فصار يعمد الى التعبير عن شهوته الجنسية بطريق مداور غير مباشر ، فحل الرمز عنده محل التصريح والايماء محل الفضوح والروية محل الجموح ، وادركت المرأة أنها كلما تمنعت وتعززت كانت أقرب الى القلوب وأحفز للنفوس على الهيام والتقديس، وكانت أخيراً أنجح في الاختيار الذي يرفع مستوى الجنس بدل ان يوطئه ويبنيه بدل ان يفنيه. أدركت المرأة هذا بفطرتها وأدركه الرجل كذلك فراحت هي تحيط نفسها بهالة من الامتناع والطهر والعفاف . ولكن في الوقت نفسه لم تشأ أن توقف الرجل منها موقف اليأس،فلوّحت له بالنظرة الهائمة والشفة الباسمة واللون الزاهي والعطر الذكي والفتنة الخالبة، ان هناك مجالاً للمطاردة وميداناً للاقتناص ولسان حالها يقول : هيا ارني أيها الرجل ماذا تستطيع وتتقن وماذا تظهر وتبطن من الخلال والصفات التي تساعد على بقاء الجنس وتجميل الحياة . وما يلبث الرجل ان يستجيب ويقدم بين يدي المرأة أحسن ما يملك ويستطيع . فهو حيناً يعرض عليها فراهة الشباب وقوة الرجولة ونبض القوة في ميادين اللعب وحلقات الصراع والملاكمة او في ميادين النضال والقتال ، وحيناً يعرض عليها المال وما وراء المال من قوة ومتاع للنفس والحس ، وآناً يقول الشعر وآونة ينحت الصخر واذا أعياه هذا او بعض هذا عمد الى الاغواء والسحر باللفظ المعسول والنظر الطال والآهة المقطوعة وخلاف هذه مما يصطنع البارعون في هذا الفن

واذاً فأنت ترى لهذه العاطفة غير فضل تخليد الجنس ، فهي ترقق الشعور وترفع النفوس وتسمو بالفكر وتغري الناس بجلائل الاعمال ، وفي ظلها يزكو الشعر ويسمو الفن ويخلد الجمال في قصيدة او صورة او تمثال . ومن هنا ما نرى ونشهد من ان أعظم الأمم ما تجلية في فنّ أو علم او حضارة هي هذه الأمم التي ارتفعت بغريزة الجنس عن مستوى المادة والحسّ الى مستوى الروح والنفس . ومن هنا ما نرى أيضاً من ان دور الانحطاط في كل أمة وشعب يبدأ حيث يبتذل الحب وتعمّ الأباحية ويصل الناس الى درجة الشبوع الحيوانية : لقد أفل نجم الاغريق وغاب سعد الرومان وخيم ليل العرب حينما أخذ الحب (ان جاز ان ندعوه حبًّا) يعرض في الأسواق ويباع ويشترى كما تباع جميع السلع ، بدل ان يحفظ ويصان في القلوب وراء الصدور